نظرية النشوء والارتقاء بين العلم والفلسفة

المدرس المساعد
غادة عبد الستار مهدي
كليه الآداب - جامعة بغداد
قسم الفلسفة

تمهيد:

من المؤكد ان مشكلة اصل الانسان قد اثارت انتباه كثير من العلماء والفلاسفة والباحثين في ميدان علم البيولوجيا " علم الحياة ". اذ شغلتهم مشكلة اصل الانسان وبداية ظهوره على سطح الارض .

ان الحياة ظهرت على سطح الكرة الارضية قبل حوالي ١٥٠٠ مليون سنة، وقد بدأت بسيطة ثم اخذت تتطور وتتدرج من كائنات رخوية الى كائنات اكثر تعقيداً لها قشور واصداف وعظام وكان من بينها الانسان . وقد برزت منذ القدم نظريات ومذاهب تطورية بعضها اسطوري وبعضها الاخر ديني او صوفي او اخلاقي . وحاولت هذه النظريات ان تقدم تفسيراً مقنعاً لنشأة الكائن الحي (الانسان) على سطح الارض ، واخذت تطرح كثير من التساؤلات عن اصل نشأته وتقدم الاجابة عليها ، فذهب بعضهم الى القول بوجود قوة او مصدر الهي مسؤول عن نشأة الانسان ، بينما بعضهم الآخر رأى بأن الانسان جاء من الرطوبة وانه تدرج من كائنات بسيطة الى كائنات معقدة ، بينما البعض الاخر رفض ان يقدم تفسيراً واضحاً لنشأة الانسان ولمفهوم التطور تمسكاً منه بقصة الخليقة الى ان ظهرت " نظرية التطور الداروينية " في القرن التاسع عشر والتي قدمت اجابة علمية بيولوجية عن نشأة الانسان وكيفية تطوره في الطبيعة .

وقد اوضحنا في هذا البحث كيف تطورت هذه النظرية في الابحاث الفلسفية الى ان اكتسبت اساساً علمياً عند دارون ومن جاء بعده . وكيف ساهمت هذه النظرية في تقدم علم البيولوجيا والظهور بمكتشفات علمية جديدة ادت الى تطوير النظرية الدارونية واحداث تعديلات عليها . كما بينت اثر الفلسفة على دارون وتأثيره على الفلاسفة فيما بعد .

١ - مفهوم النشوء والارتقاء (التطور):

ان " التطور " Evolution في مفهومه العام يعني نمو الاحياء من الكائنات البدائية البسيطة ، اي هي عملية تدرج الاحياء ضمن تركيبها العضوي تدرجاً تصاعدياً بدءاً من الاحياء البسيطة البدائية وصولاً الى الاحياء الراقية . وان هذا التدرج يشير الى ان اصل الحياة يرجع الى مبدأ بدائي واحد مشترك ، كما يشيرالى ذلك سجل المتحجرات الذي حفظ العظام المتحجرة للاحياء السالفة والقديمة في تسلسلٍ متعاقب لطبقات الكرة الارضية خلال عملية تكونها في الازمنة الجيولوجية القديمة . (١)

وهنالك ثلاث نظريات تقليدية تدور حول نشوء الحياة ، وكيفية ظهورها . هي : -

- نظرية الخلق الخاص. Special Creation
- نظرية النقل. Transmission
- نظرية البداية التلقائية (الانبثاق). Archebiosis. (٢)

النظرية الاولى : ترى بأن الحياة نشأت من مادة غير حية عن طريق قوة خالقة هي " الله " . وان هذه النظرية لاتنطوي بالضرورة على التفسير الوارد في الكتاب المقدس " الانجيل " عن فكرة الخلق ، فكل ما تفرضه هذه النظرية هو الاعتقاد بأن الحياة خُلقت عمداً في صورة معينة وبفضل قوة فاعلة . اما النظرية الثانية : فهي تفترض بأن الحياة ظهرت على كوكب الارض بعد ان جاءت من كوكب آخر او نظام شمسي آخر ، وقد جاءت هذه الحياة بواسطة " الابواغ "Spores وتمتاز هذه الابواغ بأنها اجسام صغيرة الحجم تتكون منها الشهب والكواكب .

والنظرية الثالثة: تعد معبرة عن وجهة نظر العلم الحديث ، فهي تفترض نشوء الحياة العضوية من مادة غير عضوية في فترة معينة من الزمن . وان

هذه النظرية لاتفترض وجود قوة خالقة او قوة فاعلة ادت الى ظهور هذا النشوء ، بل تدعي حدوث ذلك بفعل وسائل طبيعية محضة . (٣)
ان نظرية النشوء والارتقاء بدأت من الحضارات القديمة وصولاً الى النظرية التطورية التي وضع اصولها " تشارلس دارون " في كتابه " اصل الانواع " الذي نشره عام(١٨٥٩م) وسوف اشير خلال استعراضي لهذه النظريات الى اهم آراء العلماء والفلاسفة الذين سبقوا دارون في هذا المجال .

٢ - النشوء والارتقاء في حضارات الشرق القديمة: "المصرية – الصينية"
ان فكرة التطور او النشوء والارتقاء فكرة قديمة تعود الى الاف السنين . فأذا تتبعنا الجذور التأريخية لهذه الفكرة سوف نجدها في حضارات الشرق القديمة ، ومنها الحضارة المصرية عند
الفيلسوف " بتاح حتب " * الذي سبق دارون في القول بنظرية النشوء والارتقاء .
فالكائنات – من وجهة نظره – بدأت كالوحوش ثم تدرجت عن طريق عملية تطورية قاسية وطويلة الى ان اصبحوا بشراً آدميين . (٤)
وقد اعتقد بعض المصريين القدماء ان الحياة نشأت من الرطوبة على شاطئ نهر النيل نشوءاً ذاتياً عن طريق الصدفة ، فظهرت الديدان والضفادع ثم سائر الكائنات الاخرى . (٥)
وفي الحضارة الصينية فقد اشارت الاساطير الى ان الصينيين القدماء قد عاشوا حياة برية ووحشية كالحيوانات المفترسة المتجولة في الغابة بحثاً عن الصيد ، ثم تدرجت هذه الكائنات وظهرت من بينها نخبة من المفكرين والعلماء الذين علموا الناس العيش برقي وسلام . وهذا هو السبب الذي دعاهم الى تعظيم وتمجيد العلماء . (٦)

٣ – النشوء والارتقاء في الحضارة اليونانية والرومانية :

ظهرت فكرة النشوء والارتقاء في الحضارة اليونانية القديمة لدى معظم الفلاسفة الماديين . فنجد مثلاً " انكسيمندريس " يتحدث عن نشأة الكائنات الحية ، اذ كانت آراءه قريبة من الفكر الحديث. فالانسان قد تطور من الرطوبة ومن ثم تحول الى الارض اليابسة، وقد ولد من كائنات حية لأنواع اخرى وان كل جنس منها قد اختلف عن الآخر بمراحل تطوره. (٧)

والانسان يرجع في اصله الى اسماك مغطاة بقشور شائكة ، وقد أيد انكسيمندريس رأيه هذا بملاحظات دونها عن حفريات باقية . (٨) وعندما وصلت هذه الاسماك الى اليابسة نفضت قشورها ، وبمرور الزمن تكونت منها احياء وكائنات مختلفة الى ان ظهر الانسان . فهو منحدر من حيوانات مائية متنوعة ، حملته في احشائها دهراً طويلاً الى ان تنامت قواه واستطاع ان يحافظ على بقاءه . (٩)

وان آراء انكسيمندريس في مجال العلوم الطبيعية والبيولوجية خاصةً فيما يتعلق بالاصول البحرية والمائية للكائنات الحية والعلاقة بين التشريح البشري والتشريح الحيواني جعلته رائداً من رواد مذهب النشوء والارتقاء . (١٠)

اما عن " هيروقليطس " فقد كان يؤمن بمبدأ التغير والصيرورة والتحول – الصيرورة هنا تعني التطور - فالكائنات وجدت ونشأت من نار حية خالدة ، وقد كان نشوئها نشوءاً تدريجياً على اختلافها وتنوعها . (١١)

اما عن " انباذوقليس " فقد كانت له عدة نظريات في ميدان علم الحياة ووظائف الاعضاء . كان لها اثرها البالغ على الفلاسفة الذين جاءوا بعده ومنهم " ارسطو " . لقد افترض انباذوقليس ان اعضاء الحيوانات تكونت عن طريق الصدفة وصدرت عنها تركيبات غير متناسقة ، بدأت برؤوس واعناق واطراف عليا وسفلى ، فظهرت كائنات بدائية استطاعت ان تصمد، ثم تميزت الانواع وافترقت عن بعضها وتحددت بفعل الكراهية (الصراع) الذي يغلب على هذا العالم .وتعتبر آراء انباذوقليس في تطور الكائنات الحية واثر البيئة والانتخاب الطبيعي والصراع من اجل البقاء على اساس آلي يعتمد على عمليتي المحبة والكراهية قريبة من النظريات الحديثة المتعلقة بمبدأ النشوء والارتقاء . (١٢)

اما عن " ارسطو " فقد تحدث عن نشوء الحياة عن طريق اتحاد المادة والصورة . والصورة تعبر عن غاية ، وهذه الغاية لاتتحقق الابوجود مادة " هيولى " . (١٣) فبأتحادهما معاً تتكون الموجودات وسائر الاكوان . كما اشار ارسطو الى فكرة التطور في بعض كتبه خاصة في كتابة عن الحيوان . وسلم التطور – من وجهة نظره – يبدأ من النبات ثم الحيوان واخيراً الانسان ، والانسان ينمو ويتكاثر ويتحرك وله قابلية الادراك الحسي المباشر ، اضافة الى العقل الذي يميزه عن الحيوان ويجعله كائناً متقدماً عليه . (١٤) ومن الملاحظ هنا ان التطور عنده تطوراً منطقياً .

ومن الفلاسفة الماديين الذين تأثروا بمبدأ النشوء والارتقاء هو الفيلسوف الذري " ابيقور " الذي وافق انباذوقليس في رأيه عن اصل الحياة . فالكائنات جاءت نتيجة ذرات لطيفة ورقيقة اصطدمت مع بعضها البعض وتحركت بمحض الصدفة فتجمعت منها اجزاء الكائنات المنفصلة والمتباعدة واتصلت مكونة اصناف وانواع الكائنات الحية بعد سلسلة طويلة من المعاناة والالام . (١٥)

وفي الحضارة الرومانية نجد الفيلسوف والشاعر " لوكريتوس " ** الذي تأثر بالمذهب الابيقوري . فقد كان تلميذاً لأبيقور ومعاصراً له ، كانت له قصيدة ذات طابع غنائي وملحمي عرض فيها اساطير عن الالهة والابطال، كما اشاد فيها بمآثر معلمه ابيقور ، وآمن بمذهبه الذي كان يرى بأن الانسان يولد في شقاء وتعاسه في قلب طبيعة قاسية لامبالية عن طريق تركيب ذري محكوم بالصدفة . ويسود هذه الطبيعة صراع وكفاح عدائي يسعى الانسان فيه جاهداً الحفاظ على نوعه وبقاءه . (١٦)

٤ – النشوء والارتقاء في العصور الوسطى: "اوروبا – الحضارة الاسلامية"

بالنسبة للحضارة الاوروبية في العصر الوسيط فمن المعروف عنها انها فترة طويلة ومظلمة لم تشهد اي تطور علمي واضح بسبب سيطرة رجال الدين والكنيسة . فقد شهدت هذه الفترة تعصباً دينياً ، وتعصباً علمياً – التمسك بآراء ارسطو – ولم يكن يُسمح لأي شخص ان يعلن عن اية نظرية علمية تخالف قصة الخليقة الواردة في الكتاب المقدس . لكن نستطيع ان نقول بأن هذه الفترة قد شهدت ظهور بعض الآراء حول نظرية النشوء والارتقاء ولكن بشكل متحفظ خوفاً من بطش الكنيسة . فقد اعتقد بعض

رجال العصور الوسطى ان الحياة نشأت من بيئة مائية رطبة ظهرت منها ثعابين غير سامة ثم تدرجت وتحولت الى ثعابين سامة تكونت من الاعمدة الفقرية للجثث التي ارتكب اصحابها ذنوباً في حياتهم . ومن الآراء والافكار التي آمنوا بها ايضاً ان الاشجار التي تقطنها طيور الاوز تتحول ثمارها الهاوية على الارض الى اوز ، وهنا اشارة واضحة الى تدرج الكائنات الحية من النبات الى الحيوان . وقد ابتكر بعضهم اموراً اخرى عن الخلق فقالوا ان هنالك انواعاً من الاخشاب اذا وضعت في ماء البحر تحللت وتولدت منها ديداناً صغيرة وبمرور الزمن تتحول هذه الديدان الى حشرات ذات اجنحة زاهية اللون ثم تتحول الى طيور واخيراً الى حيوانات . (١٧) ومن الملاحظ هنا ان هذه الافكار كانت افكاراً ذات طابع ديني ، وبعضها الآخر ارتبط بالأسطورة.

اما عن " الحضارة الاسلامية " فعلى الرغم من تمسكها بفكرة الخلق التي جاءت في القرآن الكريم ، ظهرت لدى بعض الفلاسفة افكاراً تدور حول نظرية النشوء والارتقاء والانتقاء الطبيعي والوراثة وغيرها . لكن أراءهم حول هذا الموضوع لم تكن كافية .

فعلى سبيل المثال نجد في مؤلفات " اخوان الصفا "– جماعة من الفلاسفة المسلمين – أراء تشير الى وحدة الكائنات الحية . فعالم الانسان والحيوان والنبات والجماد لاينفصل عن بعضه البعض سوى في بعض الحدود الانقلابية الدقيقة . (١٨) وقد دفعهم بحثهم في مراتب الكائنات الى القول بنظرية النشوء والارتقاء ، اذ قالوا : (ان المعادن متصل اولها بالتراب وأخرها بالنبات . فخضراء الدمن ليست بشيء سوى غبار يتلبد على الارض والصخور والاحجار ، ثم تصيبه الامطار وانداء الليل فيصبح بالغد كأنه نبت زرع وحشائش ، فأذا اصابه حر شمس نصف النهار جف . والنبات اخره متصل بالحيوان ، فالنخل هو أخر المرتبة النباتية مما يلي الحيوانية ، وذلك ان النخل نبات حيواني لأنه متباين في بعض احواله ، احوال النبات ، فأناثه غير ذكوره ، ولقاحها من الفحولة كلقاح اناث الحيوان . واذا قطعت رؤوس النخل جف وبطل نموه ومات ، وهذا من شأن الحيوان لا من شأن النبات وكذلك أخر مرتبة الحيوان متصل بأول مرتبة الانسان كالقرود في التقليد ، والفيل في الذكاء والنحل في حسن التدبير.) (١٩)

ونتيجة لهذه الافكار التي طرحوها وصفهم بعض الباحثين بانهم دارونيو القرن العاشر الميلادي . لكن هذا الرأي بعيد عن الصواب ، صحيح انهم ذهبوا الى القول بأن عالم الطبيعة يؤلف سلسلة تصاعدية متصلة الحلقات ، لكن العلاقة التي تربط بين هذه العوالم لم تبنى على التركيب البيولوجي الجسمي لكل مرتبة منها ، انما بنيت على الصورة الداخلية او نفس الجوهر، تلك الصورة التي تسري بخفاء بين مراتب الموجودات مبتدئة من ادناها الى ارقاها . كما ان فكرة اخوان الصفا عن النشوء والارتقاء بعيدة عن فكرة العصر الحديث . اذ اعتقدوا بأن الفرس والفيل اشبه بالانسان من القرد ، في حين يرى اصحاب مبدأ النشوء والارتقاء بالمعنى الحديث ان جسم القرد اقرب الى جسم الانسان . (٢٠)

اما عن " ابن مسكويه " فقد اشار الى فكرة تدرج الموجودات متأثراً بأراء اخوان الصفا . فالموجودات من وجهة نظره عبارة عن سلسلة متصلة ، تتخللها الحكمة من جميع اجزاءها . وتبدأ هذه الموجودات بسيطة ثم تتعقد تدريجياً وتترقى . فالنبات في افق الجماد ثم يترقى ويزداد ليصل الى صورة الحيوان ، وكذلك الحال بالنسبة للحيوان اذ يبدأ بسيطاً حتى يصل الى مرتبة قريبة من الانسان . (٢١) وتستمر سلسلة الترقي هذه الى ان يصل الانسان الى مرتبة اعلى من ذلك الا وهي

مرتبة الملائكة ، فيصير ملكاً كريماً ثم يصل الى مرتبة الامور الالهية التي تتكشف له بوضوح وجلاء . (٢٢) ويلاحظ هنا ان التطور الذي يتحدث عنه ابن مسكويه تطوراً اخلاقياً ودينياً لايتعلق بالتطور العضوي البيولوجي.

ونذكر ايضاً قصة حي بن يقضان " لأبن طفيل " التي صور فيها انساناً يعيش وحيداً حتى تمكن من ان يرقى وبصورة تدريجية عن طريق دراسة العلوم ثم الوصول الى مرتبة الاتصال الالهي. (٢٣)

لكن السؤال الذي نطرحه هنا هو كيف ولد حي ؟

هنالك اجابتان عن هذا السؤال : الاول يفترض ان حي ولد في احدى جزر الهند من ابوين شأنه في ذلك شأن سائر البشر ، اما الفرض الثاني فيجعل ولادته ذات طابع ذاتي مصدره الطين .

الفرض الاول يمثل قصة الخلق ، اما الفرض الثاني فهو فرض علمي قائم على اساس النشوء العضوي . (٢٤)

وقد نشأ حي كما ورد في القصة طوراً حيوانياً حاول جاهداً الخروج منه . يدفعه الى ذلك حبه للمعرفة والبحث عن الحقائق عندما انبعث من داخل نفسه شعوراً دينياً اساسه العجب من اكتشاف النار ، واخذ يرتقي ويتدرج حتى وصل الى مرتبة السعادة بأنكشاف الامور الالهية . (٢٥)
ومن الملاحظ ان هذه القصة اقرب الى الجانب الديني الصوفي منها الى الجانب العلمي البيولوجي .

٥ ــ النشوء والارتقاء في عصر النهضة العلمية والعصر الحديث:
لم تظهر نظرية النشوء والارتقاء في عصر النهضة العلمية بشكل واضح بسبب سيطرة رجال الكنيسة كما كان الحال سابقاً في العصور الوسطى . ففي القرن السادس عشر ظهر العالم والفيلسوف الايطالي
" جيوردانو برونو " (١٥٤٨ م ــ ١٦٠٠ م) الذي أيد نظرية النشوء والارتقاء وكان داعياً لها . اذ اعتقد ان المتحجرات كانت موجودة على هيئة مخلوقات وفي فترة معينة من الزمن . ان قول برونو هذا ادى به الى ان يدفع حياته ثمناً لها ، اذ اودع في السجن مدة سبع سنوات ثم اعدم حرقاً.
وعلى الرغم من محاولات الكنيسة القاهرة في كم افواه العلماء والفلاسفة المسايرين لمذهب النشوء والارتقاء ومحاربتهم ومطاردتهم بدأت الآراء والافكار العلمية الحرة تنطلق شيئاً فشيئاً بعيدة عن الطابع الديني.(٢٦) وكانت بعيدة ايضاً عن الطابع الاسطوري الذي ساد الحضارات القديمة والعصور الوسطى . ومع بدايات العصر الحديث اخذت نظرية النشوء والارتقاء تحمل طابعاً علمياً بيولوجياً دعى له وأيده الكثير من العلماء . فبعد ان انطفأت هذه النظرية مدة ليست بالقليلة عادت الى
الاذهان مرة اخرى وبصورة اكثر جدية معتمدة على الجانب العلمي بدلاً من الجانب النظري الذي خيم على تفكير الفلاسفة القدماء . فقد شهد القرن الثامن عشر دعماً وتطويراً لفكرة النشوء والارتقاء من قبل بعض العلماء والفلاسفة منهم " كارل لينى " الذي كان له دور مهم في تطوير الآراء والافكار الخاصة بالتطور نتيجة للجهد الذي قام به في تصنيف العالم العضوي . (٢٧)
وأيد العالم الفرنسي " بافون " (١٧٠٧ م ــ ١٧٨٨ م) فكرة التطور منوهاً الى اثر البيئة في احداث تغيرات وتعديلات مباشرة على الاشكال الحيوانية.

كما اشار " ارازموس دارون " (١٧٣٨ م – ١٨٠٢ م) الى ان كل الحيوانات الحية جاءت من نسيج حي واحد .
لكن الفضل الاكبر في وضع اول نظرية تطورية في العصر الحديث يعود الى العالم الفرنسي " جان لامارك " (١٧٤٤ م – ١٨٢٩ م) الذي وافق بافون في قوله بقدرة الظروف الخارجية على احداث تغييرات على الكائن الحي . وبناءاً على ذلك وضع لامارك نظريته المشهورة " وراثة الصفات المكتسبة " (٢٨) التي دافع عنها في كتابه " فلسفة علم الحيوان " عام (١٨٠٩ م) ، كما نشر عام(١٨١٥م) كتاب " تاريخ اللافقريات الطبيعي". الذي اشار فيه الى ان العالم العضوي واللاعضوي يتغير باستمرار نتيجة لعوامل طبيعية والتزاوج واستعمال الاعضاء او اهمالها . كما علل اسباب وجود كائنات واطئة الى عملية التولد الذاتي . (٢٩) لكنه لم يعني ان المادة تنتج بذاتها الى الحياة ، بل كان مقصده ان هنالك غازات لطيفة كالحرارة والكهرباء تنقل الكائن غير الحي الى كائن حي بكيفيات متقطعة وفق نطاق محدود. (٣٠) وان الكائن الحي يكتسب صفاتاً جديدة من البيئة التي يعيش فيها وهذه الصفات المكتسبة تورث الى اجيال قادمة . (٣١)
كما اوضح العالم الفرنسي "جفروي سانتيلير" (١٧٢٢م – ١٨٤٤م) ان الصور المتماثلة لم تكن على ما تبدو عليه الان بل تأثرت بعوامل بيئية مختلفة. (٣٢)
كما لمح العالم " ولز " (١٨١٣ م) الى فكرة الانتخاب الطبيعي عندما اوضح بأن هنالك سلالات بشرية تقطن في القارة الافريقية وتتمتع بقدرة فائقة على مقاومة بعض الامراض . لذا فهي تستطيع ان تقاوم ظروف البيئة القاسية وتصمد امامها في حين تكون السلالات البيضاء او الاقل اسوداداً غير قادرة على الصمود فتبدأ بالانقراض وتحل محلها عندئذ السلالات السوداء . (٣٣)
وفي عام (١٨٢٦م) تحدث العالم " جرانت " على ان انواع الكائنات الموجودة في الوقت الحاضر تولدت من انواع اخرى بصورة تدريجية . كما اشار العالم " باتريك ماثيو " (١٨٣١ م) في كتيّر من مؤلفاته الى ان العالم كان خالياً من الاحياء والكائنات ثم بدأت تظهر على التوالي . (٣٤)
كما نُشر للاستاذ " فريك " مقالاً في صحيفة " ديلين الطبيعية " قال فيها : (انه يعتقد ان الكائنات العضوية قد تدرجت في الوجود بالتسلسل من صورة اصيلة واحده) .
وجاء في صحيفة " الليدر " مقال للفيلسوف الانجليزي " هربرت سبنسر " (١٨٢٠ م – ١٩٠٣ م) ذكر فيه عملية تدرج الاحياء وعملية تكيفها ، وتضمن حديثه اشارة لتغير الصفات الناتج عن تغير الظروف والحالات . وقد بحث في

عام (١٨٥٠ م) في ميدان علم النفس مؤكداً فيه على ان الادراكات وكافة القوى العقلية تحدث بطريقة تدريجية عبر سلم التطور .
كما بين احد علماء النبات وهو العالم " نورين " عن طريق رسالة كتبها عام (١٨٥٢ م) في اصل الانواع قال فيها : (ان نشأة الانواع تماثل نشاة الضروب بتأثير المداومة على زراعتها) . وقد رد حدوث هذه العملية الى الانتخاب في الانسان ، كما انه كان يعتقد بأن الكائنات الاولى كانت في طورها البدائي اكثر قابلية للتشكل مما تبدو عليه في الوقت الحاضر .
ولايفوتنا ان نذكر ان عالم الجيولوجيا " كونت كيزر كنج " قد بين في مقالة نشرت له عام (١٨٥٣ م) مدى تأثير المواد الكيميائية على الاحياء . وهو يقول بهذا الصدد : (ان جراثيم الانواع الحية تأثرت تأثراً كيمياوياً في اوقات خاصة بتطاير جزيئات معينة مما ادى الى ظهور صور جديدة). (٣٥) هذه هي اهم النظريات الدائرة حول مفهوم النشوء والارتقاء (التطور) والتي استطاع دارون من خلالها ارساء دعائم نظريته التطورية التي اقترنت بأسمه وجعلت منه احد اكبر علماء التطور والمؤسس الاول لها . وقبل ان نبدأ بتوضيح هذه النظرية بطابعها العلمي لابد من الاشارة الى الاسس والمقومات العلمية وغيرها التي استند اليها دارون في صياغة تلك النظرية ومن هم العلماء والفلاسفة الذين تأثر بهم .

٦ - الاسس التي استندت عليها النظرية التطورية الدارونية :

السؤال الذي نطرحه هنا هل كانت النظرية التطورية من اكتشاف دارون ؟ ام انها نتجت من تراكم افكار وآراء ونظريات علمية وفلسفية سابقة ، تمكن دارون من استثمارها وصاغ على اساسها نظريته في النشوء والارتقاء بطابعها المادي البيولوجي ؟ الحقيقة ان الجواب هنا يبدو في غاية التعقيد لكن نستطيع ان نقول بأن النظرية التطورية كانت نتاجاً علمياً ينسب لدارون ، لكن هذا لا يمنع من القول بأن دارون كان مطلعاً على آراء وافكار العلماء والفلاسفة في عصره . فقد اعتمد دارون على الافكار التي جاءت في كتاب " فلسفة الحيوان " للعالم لامارك الذي بين فيه اثر الظروف البيئية على الكائنات وما تنتجه من انحرافات عن الطريق المألوف للطبيعة . كما اعتمد دارون على كتاب " مبادئ الجيولوجيا " لـ جارلس ليل في مسألة الكوارث الطبيعية وما تحدثه من تغيرات على البيئة والكائن الحي . تمكن دارون من استثمار هذين الجهدين وبدأ يقوم بالكثير من التجارب على النبات والحيوان ويجمع ملاحظاته ومشاهداته الدقيقة ، فظهر لنا بفكرة التحول البطئ بين الكائنات الحية . (٣٦)

وشاءت الصدفة ان يقرأ دارون في عام (١٨٣٨ م) كتاب " في السكان " لـ مالثوس (مفكر الاقتصاد الانجليزي) فظهر بفكرة جديدة اضيفت الى باقي ابحاثه ، هذه الفكرة مفادها ان هنالك صراعاً يدور في كل مكان . وقد جاءت هذه النقطة نتيجة ملاحظاته الطويلة والمتواصلة لطريقة سلوك وعادات الكائنات الحية كالحيوانات مثلاً. (٣٧)

لقد استعار دارون فكرة " التنازع من اجل البقاء " و " بقاء الاصلح " من الفيلسوف الانجليزي "هربرت سبنسر" الذي استعمل هذا التعبير في حدود عام (١٨٥٢ م) ، وقبل ان ينشر دارون كتابه عن " اصل الانواع " بحوالي سبع سنوات . (٣٨) وقد كانت هذه الفكرة الجزء المكمل لنظرية دارون في التنازع او الصراع من اجل البقاء ثم بقاء الاصلح . وهكذا جعل دارون فكرته عن التطور قائمة على دعامتين رئيسيتين هما : امكان تغير الانواع بفعل العوامل والظروف الطبيعية ، ثم التنازع من اجل البقاء ، وبقاء الاصلح .

نستطيع ان نستخلص مما سبق ان النظرية التطورية تلقاها دارون من لامارك في جانبها البيولوجي ومن هربرت سبنسر من جانب تحديد قانون التطور حتى ان كلمة التطور لم يكن دارون اول من استعملها ، بل سبقه اليها سبنسر في مؤلفه " Gensesis Of Science " الذي اصدره سنة (١٨٥٤م) وكتاب "Progress: Its "Law And Causes سنة (١٨٥٧م). وهكذا استطاع ان يجمع دارون كل هذه الاراء والنظريات في نظرية موحدة ، واضافها الى معلوماته التي جمعها في رحلته على سفينة بيجل، تلك الرحلة التي استغرقت الخمس سنوات تقريباً (١٨٣١ م – ١٨٣٦ م).(٣٩) والتي حملها عينات مختلفة من النباتات والحشرات والحيوانات والحفريات بما يكفي لأنشاء متحف احيائي وجيولوجي. (٤٠) بحيث اكتشف برحلته هذه العلاقة الجيولوجية التي تربط الحيوانات السالفة في امريكا الجنوبية مع الحيوانات الحالية . واثبت وجود علاقات نسب بين شتى الانواع بعد ان درس خصائص توزيع الاحياء في المناطق المختلفة . كما ان هذه الاحياء انحدرت بعضها من بعض بفعل عملية التدرج او التحول ولم توجد بشكلٍ مستقل قائم بذاته . (٤١) وقد قضى دارون ما يقارب الواحد والعشرين عام يجمع الادلة البيولوجية حتى تمكن عام (١٨٥٩م) من اصدار مؤلفه " اصل الانواع The Origin Of Species " .(٤٢)

٧ - النشوء والارتقاء عند دارون وعلاقة القرد بالانسان:

لقد بنيت نظرية التطور عند دارون على اسس وحقائق ومجموعة من النتائج يمكن توضيحها على الوجه التالي : -

١ - ان الكائنات الحية تتكاثر بنسب هندسية ، بمعنى انها قابلة للزيادة في اعدادها نتيجة التناسل .

٢ - تبقى اعضاء النوع الواحد كما هي عليه رغم تكاثر وزيادة الكائنات الحية .

٣ - تتغير الاحياء وافراد النوع الواحد يتشابهون – بفعل الصفات الوراثية – لكنهم لايكونون نسخه ثانية مطابقة لآباءهم .

اما النتائج التي توصل اليها دارون :

أ - هنالك صراع عنيف وكفاح مستمر من اجل البقاء بين انواع الاحياء ، وبين افراد النوع الواحد نفسه .
ب - ان الافراد الذين يتصفون ببعض الصفات هم اقدر على البقاء من افراد نوعهم .

تعد هذه الحقائق من اهم عناصر نظرية التطور التي نشرها دارون في مؤلفه القيم " اصل الانواع ". (٤٣) وقد حاول دارون بعد ان نضجت فكرته عن التطور واصبح متأكداً من حدوث تنوع وتحول بينها ، حاول تطبيقها على الانسان بأعتباره الكائن العضوي الذي يخضع لنفس السنن التي خضعت لها جميع الاحياء . اذ اخذ يجمع الادلة والشواهد ويستخلص منها النتائج التي اثبت من خلالها بأن الانسان نشأ من صورة دنيا هي اقرب لأن تكون الى صورة القردة العليا منها الى اي صورة اخرى من صور الكائنات . (٤٤) بعد ان لاحظ وجود تشابه كبير في عظام الهيكل العظمي بين الانسان والقردة – وجميعها من الثدييات – كما لاحظ ايضاً وجود تشابه في اعصاب وعضلات الانسان والقردة . كما ان الاجهزة التناسلية في جميع الثدييات واحدة ، بدءاً من مرحلة الغزل حتى مرحلة الميلاد والعناية بالصغار. اضافة الى الشبه الكبير الموجود بين جنين الانسان واجنة باقي الحيوانات. (٤٥)

وقد توصل دارون الى وجود مثل هذا التشابه نتيجة قيامه بدراسة تشريحية مقارنة بين القرود والانسان واعتقد بأن حركة التطور لعبت دوراً مهماً في الانسان كما فعلت في سائر الحيوانات ، في الوقت الذي لم يكن فيه دارون مطلعاً على تجارب مندل في ميدان علم الوراثة. (٤٦) وقد ركز دارون على مسألة تطور الانسان في اهم مؤلفاته بعد " اصل الانواع " وهو كتاب "هبوط الانسان" الذي حاول فيه ان يوضح كيف تطور الانسان من اصول حيوانية. اذ اعتقد ان اهم ما يميز الانسان هو استعماله الذراعين واليدين، ووقوفه على قدمين، ونتيجة لهذا الوقوف حدثت تعديلات تركيبية ساعدت على ظهور العمود الفقري. (٤٧) واخذ دارون يبين ان الانسان عندما بدأ يستعمل الالات والادوات قل اعتماده على الاسنان في عملية القطع ، فبدأ حجم الاسنان يصغر مما ادى فيما بعد الى صغر حجم فكه تدريجياً . وقد توصل دارون الى هذا الاستنتاج لأعتقاده ان العضو يقوى بالاستعمال

ويضعف بالاهمال . فالفك صغر حجمه نتيجة قلة استعماله ، بينما ازداد حجم الجمجمة واصبح الذهن اكثر قدرة وقوة لأزدياد استعماله من قبل الانسان .
فالانسان – من وجهة نظره – جزء من المملكة الحيوانية ، تطور عن طريق عملية الانتخاب الطبيعي ، وان التنوع هو الذي مكن الطبيعة من القيام بعملية الانتقاء او الانتخاب . (٤٨) والحقيقة ان دارون لم يقل بأن الانسان ينحدر من سلالة تشبه القرود ، بل اعتقد بوجود سلف في الماضي البعيد تشترك فيه كافة الرئيسيات ومنها الانسان. (٤٩) كما اعترف دارون بوجود حلقة مفقودة بين ارقى القرود وادنى البشر ، كما ان هناك هوة سحيقة تفصل بين الانسان البدائي وبين نيوتن وشكسبير . (٥٠) ولم يكن دارون يخشى من خصومه الذين طالبوه بتوضيح معنى الحلقة المفقودة لأنه كان على يقين مطلق بأن البحث سيعثر عليها في يومٍ من الايام . (٥١)

٨- دفاع دارون عن النظرية التطورية:

عندما اعلن دارون كتاب " اصل الانواع " احدث ضجة كبيرة وسخطاً واسعاً بين مؤيدي الرأي القديم واصحاب الكنيسة ، لأنها تخالف الافكار والاراء التي أمنوا بها وورثوها عن القدماء .
لذلك اخذوا يعملون على نقض نظريته بمجموعة من البراهين المستندة الى المنقولات القديمة التي جاءت تاييداً لوجهة نظرهم الدينية والاخلاقية.(٥٢) لأن عملية التطور التي دعا لها دارون كانت بمثابة عملية تستند على اسس طبيعية خالصة ، وتستبعد تدخل اية قوة خارجية اوقوة خارقة للطبيعة. والواقع ان استغناء دارون عن هذة القوة في نظريته التطورية كان السبب الاول والاكبر في معارضة الكنيسة لاراءه انطلاقا من ايمانها الديني والاخلاقي حتى انهم اتهموه بإنكار الدين والالحاد.(٥٣)
كما ترسخت نظرية دارون هذة بشكل اعمق في كتابة "سلالة الانسان "الذي اوضح فيه ان ملكات الانسان العقلية والغرائز والتصورات الدينية والاخلاقية ماهي الا نتاج تغيرات بيولوجية ،انتقلت عن طريق الوراثة وترسخت فيه . وقد استغل بعض العلماء ومنهم "ارنست هكل" هذة الفكرة وصاغها في عبارة مثيرة هي:(الانسان ينحدر من القرد) أوبعبارات مبتذله (الانسان اصله قرد) . والواقع ان دارون لم ينطق بهكذا عبارات، ولم

يكتبها في اي مؤلف من مؤلفاته.(٥٤) بل ان تحوير العبارات لدى بعض العلماء وارجاع نسبها الى دارون هو الذي حمل الكنيسة عليه . كما ان قوله بأن النظم الدينية والاخلاقية عبارة عن ادوات بيولوجية ، ووسائل للحفاظ على البقاء في تنازع الوجود والحياة خلق له اعداء جدد ومنهم اصحاب النزعة الروحية وعلى رأسهم "هنري برجسون" .

وقد تجلت هذة الروح العلمية عند دارون وبشكل واضح في كتابة "التعبير عن الانفعالات في الانسان والحيوان" .عندما اكد على ان علم النفس قائم على اساس فسيولوجي . وقد دافع دارون عن نظريته التطورية دفاعا عنيفا ورد على الذين اتهموه بالالحاد وانكار الدين قائلآ:(في تذبذباتي الكبرى ، لم اصل ابدا الى الالحاد بالمعنى الصحيح لهذا اللفظ، اي انكار وجود الله. لكنني اعتقد على وجة العموم وكلما امتد بي العمر ان الوصف الادق لحالتي العقلية هو اللاادرية). وفي كتاب "سلالة الانسان" يقول : (لااجهل ان كثيرين سينعتون النتائج التي وصلنا اليها في هذا الكتاب بأنها منافية للدين . لكن على من يدعون هذة الدعوى ان يبرهنوا على ان هناك الحاداً اكبر في القول بأن الانسان ، بوصفه نوعاً مستقلاً ، ينحدر من نوع ادنى وفقاً لقوانين التحولات في الانتخاب الطبيعي منه في القول بأن الانسان الفرد يتكون ويولد بقوانين التناسل العادية). (٥٥)

٩ - تقييم النظرية الدارونية وبيان اثرها على العلم والفلسفة:

كان لنظرية التطور الدارونية اثر كبير في زيادة البحث في ميدان العلوم البيولوجية ، على الرغم من حدوث تغيرات عديدة طرأت على تفاصيلها . وظهور ابحاث وكشوفات بينت عيوب هذه النظرية ونواقصها . ومهما يكن من ذلك فقد ادت النظرية التطورية الى تقدم علم البيولوجيا ، وظهور مصطلحات جديدة لم تكن معروفة من قبل مثل الوراثة (الجينات) ، والكروموسوم (الصبغة) ، والطفرة والسائد ... الخ . (٥٦)

وظهرت كشوفات علمية حديثة كانت تمثل امتداداً للنظرية التطورية اكثر مما هي تعديلات عليها . ومن اهم هذه الكشوفات، كشف : " فيزمان" و "دي فريز" و "مندل" .

اذ تمكن العالم فيزمان من اكتشاف نظامين منفصلين وشبه مستقلين للخلايا، فالجزء الاكبر من التكوين العضوي لجسم الانسان مكون من خلايا جسمية

Somatic ، وهي ذاتها مقر الصفات المكتسبة عند لامارك . اما الجانب الاخر من الخلايا فهي الخلايا الجرثومية Germ – Cells وتتصف هذه الخلايا بأنها خالدة ، والمقصود بانها خالدة اي انها مستمرة بدءاً من اول كائن عضوي حي الى مالا نهاية . والنتيجة التي استخلصها فيزمان هنا ان كل فرد يستمد اصله من الخلايا الجسمية الخالدة التي يحملها الابوين وينقلانها اليه ، وليس من الخلايا الجسمية التي تكون مهيئة للتعديل . (٥٧) وهنا يتبين لنا بأن النظرية الداروينية وقعت في خطأ واضح عندما افترضت بأن التغيرات التي تطرأ على النوع ناتجة من تعديل الخلايا الجسمية . والواقع لم يكن هذا الكشف الذي قدمه فيزمان هدماً وتقويضاً للنظرية الداروينية بل كان تحسيناً لها . هذا بالنسبة للكشف الاول ، اما الكشف الثاني فهو كشف " الطفرات " الذي قدمه عالم النبات الهولندي " دي فريز " ١٩٠٠ م . (٥٨) بعد ان شغلته مشكلة كيفية حدوث التغير في الانواع الاحيائية ، وظهور انواع جديدة تفرعت عنها .

بدأ العالم دي فريز يستنبت الازهار ويجمع بذورها ويزرعها مرة ثانية ويلاحظ نمو اوراقها وازهارها وقضى قرابة ثلاثة فصول صيف يجمع آلاف الازهار . فأختار من بينها تسع زهرات من نوع " اللاماركينا " واستنبتها في خريف (١٨٨٦ م) ثم اعاد عملية زرع بذورها في العام الثاني ، وفي العام الثالث زرع خمسة عشر الف نبته من اللاماركينا . فلاحظ ان عشرة نباتات ظهرت بصفات مختلفة عن الصفات العامة لهذه الزهرة . وقد قال بصدد ذلك : (بل لقد ظهرت كاملة الصفات ، بلا تدرج هناك، ولاانتخاب، ولاصراع من اجل البقاء، بل قفزة جديدة نحو طراز جديد، ولقد حققت آمالي في امكان ملاحظة اصل الانواع واخضاعها للتجربة). (٥٩) فالنتائج التي توصل اليها دي فريز اشارت الى ان الانواع الجديدة تظهر بشكل فجائي وبدون خطوات انتقالية . كما انها تظهر جديدة بكل صفاتها التي تميزها عن الاصناف السابقة وبدون صراع او انتخاب . والطفرات تظهر فجأة وفي عدد معين ينفصل عن الاصل في حين تبقى معظم افراد النوع على حالها دون ان يطرأ عليها اي تغيير وتظهر الانواع الجديدة كاملة من حيث صفاتها. اما الصفات الطافرة فلا علاقة لها بالتغيرات الفردية. (٦٠) والواقع ان هذا الكشف يخالف التعبير الاصلي للنظرية الداروينية التي

افترضت وراثة التنوعات التي تفيد في البقاء . وان هذه التنوعات ليست كثيرة بل ضئيلة وحدوثها يتم عفوياً . مع هذا نقول ان كشف الطفرات لم يكن اضعافاً للنظرية التطورية بل جعلها نظرية اقرب الى التصديق في الوقت الذي اعتبر فيه البعض ان كشف الطفرات قادراً على هدم النظرية التطورية في اساسها. (٦١) وقد قدم علم الحفريات عام ١٩٠٠ م ادلة وافية أيدت كشف دي فريز في الوقت الذي اصبحت فيه النظرية العامة للتطور اساس العلم البيولوجي الحديث .

اما الكشف الثالث فهو كشف " الوراثة " الذي بقي لغزاً بدون حل الى ان جاء الراهب النمساوي " جوهان مندل " (١٨٢٢ م – ١٨٨٤ م) عندما قام بسلسلة من الابحاث العلمية على النباتات في حديقة الدير الذي كان يقيم فيه. (٦٣) وقد بدأ مندل ابحاثه قبل صدور كتاب دارون عن " اصل الانواع " . عندما نشر عام(١٨٦٦ م) مقالة في مجلة العلوم النباتية ، وبقي هذا المقال مهملاً ، لكن مندل واصل ابحاثه الى ان تمكن من الوصول الى قوانين" الوراثة ". (٦٤) بعد ان اخذ نبات البازلاء واختار منها اثنين وعشرين نوع من اصل اربع وثلاثين نوع واجرى عليها ابحاثه مدة عامين . قام فيها بتلقيح ازهار نباتاته بعضها مع البعض الاخر وبأسلوبٍ منظم ، فبدأ يلقح البازلاء المستديرة البذور مع حبوب لقاح بازلاء مجعدة البذور . ويلقح بازلاء صفراء ببازلاء خضراء ، فوجد ان اول جيل ظهر مستدير البذور ، اذاً لابد ان تكون صفة الاستدارة سائدة ، وصفة التجعد متنحية ، بحيث ينتج من اجتماعهما سيادة صفة الاستدارة وتنحي صفة التجعد . ثم قام مندل بتلقيح ازهار هذا الجيل في الربيع مع حبوب لقاح نفس الجيل المهجن ، فكانت النتيجة ٣ بذور مستديرة من مجموع ٤ وبذرة واحدة مجعدة . فصفة الجد المجعدة ظهرت بنسبة ١ : ٣ ولم تختفي نهائياً.

وفي الربيع التالي لقح كل نوع تلقيحاً ذاتياً ، فلقح البازلاء المستديرة مع بعضها البعض ، والمجعدة كذلك مع بعضها البعض ، فكانت النتيجة التي حصل عليها ان البازلاءالمستديرة انتجت حبوباً مستديرة والمجعدة انتجت مجعدة ، وبهذا الشكل توصل مندل الى قوانين الوراثة الاساسية التي اثبت من خلالها بأن التطور قانون طبيعي وليس عشوائي. (٦٥) وكانت النتيجة كالاتي :

١ - كل كائن حي مركب من عدد مستقل من الوحدات الوراثية ، كما ان كل وحدة وراثية منها مستقلة عن الاخرى .
٢ - كل زوج من الصفات المتعارضة يتداخل وينفصل بعضه عن بعض، ويمكن ان تظهر الصفات في الهجين .
٣ - العوامل الوراثية لاتتغير ولاتتأثر بالتزاوج . (٦٦)
وقد اصبحت اكتشافات مندل فيما بعد اساساً للدراسات الحديثة ، بعد ان فسرت انتقال الصفات الوراثية بنشاط اجزاء معينة تكون مسؤولة عن حمل صفات الكائن الحي ، وقد عُرفت هذه الاجزاء الآن باسم الكروموسومات.(٦٧) فالوراثة تقوم بعملية المحافظة على الصفات من السلف الى الخلف اي الحفاظ على الموجود بمعنى انها تخضع لقوانين ثابتة، اما التطور فهو تغير واكتساب صفات جديدة وذلك بالخروج عما هو موجود. (٦٨) والمهم لدينا هنا ان هناك تغيراً يطرأ على صفات الكائن الحي ، وان هذا التغير اذا كان ملائماً للبيئة سوف يمنح الكائن الحي فرصة افضل في الحياة وسلاحاً اقوى للبقاء ، فيبقى صاحبه ويورث صفاته الى سلفه وتثبت هذه الصفات الجديدة بقوانين الوراثة . (٦٩) كما ان الانتخاب الطبيعي لايحدث عن طريق التنوعات كما ادعى دارون بل يحدث عن طريق الطفرات . فالطبيعة في تغير مستمر لذا فهي تقدم من وقت لآخر طفرات جديدة ، فأن كانت غير صالحة لن تعين الكائن الحي في معترك الحياة ، وتؤدي به الى الموت ثم تختفي بموته. اما اذا كانت صالحة منحت اصحابها قوة كافية تساعدهم على الصمود في معترك الحياة، فتنتخبهم الطبيعة وتثبت صفاتهم الطافرة بالوراثة. وان هذه الصفات الطافرة هي المجال الذي تتم فيه عملية الانتخاب الطبيعي. (٧٠) نستطيع ان نستنتج مما تقدم ان نظرية التطور الدارونية جرت عليها تعديلات وابحاث بيولوجية عديدة ساهمت في ظهور الكثير من النظريات والمصطلحات العلمية التي كانت بمثابة تعديلاً عليها وامتداداً لها وكشفاً جديداً لتطويرها . هذا فيما يخص مجال العلم . اما عن الفلسفة فقد امتد تأثير النظرية التطورية عند دارون الى بعض الفلاسفة ممن تعاطفوا معها واعتنقوها ورددوا عباراتها ، وبدت واضحة في فلسفاتهم نذكر منهم " كارل ماركس " و " انجلز " و " نيتشه " .

فالفيلسوف المادي ماركس كان يؤمن بمذهب التطور والصراع القائم بين الطبقات . وقد تجلى ذلك واضحاً في كتابه " رأس المال " الذي صدر عام (١٨٦٧ م) . والذي اكد فيه على ان هنالك تنافساً قائماً بين الطبقات اي بين كبار الماليين والضعفاء ، وسوف ينتهي هذا الصراع بهزيمة الضعفاء وانتصار اصحاب رؤوس الاموال لأنهم يملكون من القوة والمال ما يجعلهم مؤهلين للبقاء. (٧١) وهذا يذكرنا برأي دارون في نظريته عن التطور ، والصراع من اجل البقاء ثم البقاء للاصلح .

اما الفيلسوف المادي انجلز فقد كتب عام (١٨٧٦م) بحثاً تحت عنوان " دور العمل في تحول القرد الى انسان " الذي صدر عام (١٨٩٦م) في مجلة " نوي زايت Neue Zeit". (٧٢) اكد انجلز في هذا البحث على اهمية العمل بأعتباره مصدر كل ثروة . كما ان له دور فعال في تحول القرد الى انسان على اساس ان العمل خلقٌ للانسان ، فالطبيعة تقدم له المادة الخام التي يحولها الى ثروة .

حيث اعتقد انجلز بوجود جزيرة شاسعة – مغمورة الان بمياه المحيط الهندي – في المنطقة الاستوائية ، نشأ فيها جنس من القرود قريبة الشبه بالانسان الى حد بلغت معه درجة عالية من التطور – والتي اطلق عليها دارون من قبل اجدادنا – وكانت تعيش على هيئة عصابات بين الاشجار ثم تكيفت اعضاؤها بمرور الزمن واصبحت قريبة من الانسان ، فمثلاً قل اعتمادها على اليد في المشي وبدأت تستخدمها للتسلق وقطف الثمار ، فأخذت تتحور تلك الاعضاء وانتصبت القرود اكثر فأكثر واتخذت مشية عمودية. وبهذا الشكل تمت الخطوة الحاسمة للانتقال من القرد الى الانسان. (٧٣) اذن هنالك عمل مشترك بين القردة والبشر ساعدها على التقارب والتشابه .

اما بالنسبة للفيلسوف نيتشه (١٨٤٤م – ١٩٠٠م) فنجد ان فكرة دارون حول الصراع من اجل البقاء واضحةً لديه . اذ اعتقد هذا الفيلسوف ان القتل والقسوة مبدأ للحياة . فالحيوان يصارع ويقاتل ليتطور الى انسان، كما ان الانسان يصارع بكل ما يملك من قوة لكي يتطور الى انسان اعلى " السوبر مان " . ويصف نيتشه هذا الانسان بأنه قوة هادمة لاخالقة (الانسان الاعلى هادم لاخالق) وان وظيفة هذه القوة التفوق والتطور فوق اجساد بني البشر

لتحقيق النصر والسيطرة التي لايمكنها ان تتحقق الا عن طريق اعمال حربية وعدوانية . وان هذه الاعمال تشبه هجوم الذئب على قطيع الاغنام اي (طبقة السادة والعبيد). (٧٤) وقد صرح نيتشه قائلاً: (عش مغامراً. عش في حالة حرب دائمة) و (ارادة القتل من اجل الحياة ، هي انبل هدف في العالم) (٧٥) .

الخاتمة

في الخاتمة يمكن القول ان نظرية التطور البيولوجي " النشوء والارتقاء " لم تكن من نتاج دارون وحده بل سبقه في هذا المضمار عدد من العلماء والفلاسفة . كما ظهرت محاولات في العصور القديمة والعصور الوسطى وعصر النهضة الى ان جاء العصر الحديث اذ تطورت هذه النظرية واعتبرت اساس علم البيولوجيا الحديث .

ومن الملاحظ ان كل النظريات التي سبقت دارون لم تكن تحمل طابعاً مادياً بيولوجياً ، بل كانت تحمل طابعاً اما اسطورياً او دينياً او صوفياً او اخلاقياً . فالبعض نسب عملية التطور الى الاساطير كما لاحظنا ذلك في العصور الوسطى والبعض جعلها تحمل طابعاً دينياً واخلاقياً بسبب ايمانه بوجود قوة عليا مسؤولة عن عملية التطور كما نجدها عند اصحاب المذهب الحيوي من امثال برجسون . اما البعض فقد انكرها تماماً انطلاقاً من تمسكه بفكرة الخليقة الوارده في الكتاب المقدس خاصة عند رجال الدين واصحاب الكنيسة .

اما دارون فقد قامت نظريته التطورية على اسس مادية بيولوجية بعيدة عن الدين والاخلاق بعد ان اقتنع بأن ملكات الانسان وقواه العقلية وجميع غرائزه ومعتقداته الدينية وكذلك الاخلاق قائمة على اساس تغيرات بيولوجية خالصة . كما ان قول دارون بأن الانظمة الدينية والاخلاقية ادوات بيولوجية تساعد الانسان في صراعه من اجل الحفاظ على البقاء ، جعله بعيداً عن الدين من وجهة نظر اصحاب المذهب الحيوي .

لم يكن دارون ملحداً او بعيداً عن الدين تماماً ، بل هنالك اقوال تنسب له توضح عدم انكاره وجود الله وهذه الاقوال ذكرناها في موضوع دفاع دارون عن النظرية التطورية . هذا فيما يتعلق بالجانب الديني والاخلاقي . اما عن الجانب العلمي فلنظرية دارون مكانة مهمة في تقدم علم البيولوجيا الى الامام . اذ لم يجرؤ احد على اعلان مثل هذه النظرية سوى دارون خوفاً من سلطة رجال الدين . اذ يمكن اعتبارها الباعث الاول الذي دعم وطور الكثير من الابحاث البيولوجية فيما بعد . كما ان هذه الابحاث احدثت تعديلات على النظرية الدارونية وطورتها مثل ابحاث ميدان الخلية والوراثة والطفرات .. الخ

الهوامش

(١) الدباغ ، تقي وزميله: علم الانسان الطبيعي، مطبعة جامعة بغداد، بغداد ، ١٩٨٣ ، ص٣٦ .
(٢) ميد ، هنتر : الفلسفة انواعها ومشكلاتها ، ترجمة د. فؤاد زكريا ، مطبعة نهضة مصر، الفجالة – القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص١٠٤ .
(٣) المصدر نفسه : ص١٠٤ – ص١٠٥
* بتاح حتب : فيلسوف مصري ، ظهر في حدود ٢٧٠٠ ق.م ، ولم تصل معلومات كافية عنه سوى انه ظهر قبل افلاطون بحوالي ٢٣٠٠ عام . كان حاكماً ورئيساً للوزراء وفي آخر ايام حياته اعتزل منصبه وكرس نفسه لتعليم ابنه والناشئة .
(٤) توماس ، هنري :اعلام الفلاسفة (كيف نفهمهم) ، ترجمة متري امين ، مراجعة وتقديم زكي نجيب محمود ، دار النهضة العربية ، القاهرة - نيويورك ، ١٩٦٤ ، ص ٥ .
(٥) عبرة ، عبد الرسول مهدي : قضية الخلق بين الماديين والمثاليين ، مطبعة حسام ، ط ١ ، بغداد ، ١٩٧٩ ، ص٦٥ .
(٦) توماس : هنري : اعلام الفلاسفة (كيف نفهمهم)، ص ٤٧ - ٤٨.
(7) Edwards , Paul : The Encyclopedia Of Philosophy, Volume (1) , London , 1967 , P. 117 .
(٨) رسل ، برتراند : حكمة الغرب ، ترجمة د. فؤاد زكريا ، ج١، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والنشر والآداب ، ١٤٠٣ هـ - ١٩٣٨م ، ص٣٦ .
(٩) كرم ، يوسف : تاريخ الفلسفة اليونانية ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، بيروت – لبنان ، ١٣٥٥ هـ - ١٩٣٦ م ، ص١٦ .
(١٠) طرابيشي ، جورج : معجم الفلاسفة ، دار الطليعة ، ط١ ، بيروت ، آيار (مايو) ١٩٨٧ ، ص٩٧ .
(١١) امين ، احمد وزميله : قصة الفلسفة اليونانية ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ط٢،القاهرة، ١٩٣٥ ، ص٦٢ .
(١٢) مطر ، اميرة حلمي : الفلسفة اليونانية (تاريخها ومشكلاتها) ، دار المعارف ، مطبعة القاهرة الجديدة ، ١٩٨٨ ، ص١٠٤ .
(١٣) سارتون ، جورج : تاريخ العلم ، ترجمة ابراهيم بيومي وآخرون ، دار المعارف بمصر ، ط١ ، القاهرة - نيويورك ، ١٩٦١ ، ص٢٢٤ .

(١٤) ستيس ، وولتر : تاريخ الفلسفة اليونانية ، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٤ ، ص٢٤٥ .

(15) Turner ، William ، History Of Philosophy، Posten U.S.A ، New Uork ، Copyright ، 1903 ، P.179 .

* * لوكريتوس كاروس : شاعر روماني ، ولد في حدود ٩٨ – ٥٥ ق.م ، له قصيدة تعتبر من اروع الاعمال الادبية ، تضمنت الكثير من المواضيع خاصة موضوع الطبيعة والتطور والروح والرعد والزلازل والمغناطيس وغيرها .

(١٦) طرابيشي ، جورج : معجم الفلاسفة ، ص ٥٥٠.

(١٧) عبرة ، عبد الرسول مهدي : قضية الخلق بين الماديين والمثاليين، ص٦٥.

(١٨) غلاب ، محمد السيد : اصل الانسان ، الهيئة المصرية العامه للتأليف والنشر ، ١٩٧١ ، ص١٩ .

(١٩) اخوان الصفا وخلان الوفا : الرسائل ، المجلد الاول (القسم الرياضي) ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٥٧ ، ص١٥ .

(٢٠) دي بور ، ت . ج : تاريخ الفلسفة في الاسلام ، نقله الى العربية وعلق عليه د. محمد عبد الهادي ابو ريدة ، مكتبة النهضة المصرية ، ط٥ ، القاهرة ، ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م ، ص١٦٩ – ص١٧٠ .

(٢١) المصدر نفسه : ص٢٢٤ .

(٢٢) الجبوري ، نظلة احمد نائل : الفلسفة الاسلامية ، مطبعة جامعة بغداد ، ط١ ، بغداد ، ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م ، ص ٣٦٥.

(٢٣) طرابيشي ، جورج : معجم الفلاسفة ، ص٢٨ .

(٢٤) بدوي ، عبد الرحمن : موسوعة الفلسفة ، جـ١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، طـ١ ، بيروت ، ١٩٨٤ ، ص٧١ .

(٢٥) دي بور ، ت . ج : تاريخ الفلسفة في الاسلام ، ص٣٨٠ .

(٢٦) الدباغ ، تقي وزميله : علم الانسان الطبيعي ، ص٣٧ .

(٢٧) عبرة ، عبد الرسول مهدي : قضية الخلق بين الماديين والمثاليين ، ص١٣٠ .

(٢٨) ميد ، هنتر : الفلسفة انواعها ومشكلاتها ، ص١٠٨ .

(٢٩) عبرة ، عبد الرسول مهدي : قضية الخلق بين الماديين والمثاليين ، ص١٣٠ .

(٣٠) كرم ، يوسف : تاريخ الفلسفة الحديثة، دار القلم ، بيروت – لبنان، ١٩٤٩، ص٣٠٠ .

(٣١) الدباغ ، تقي وزميله : علم الانسان الطبيعي ، ص٤٧ .

(٣٢) عبرة ، عبد الرسول مهدي : قضية الخلق بين الماديين والمثاليين ، ص١٣١ .

(٣٣) المصدر نفسه ، ص١٣١ .
(٣٤) المصدر نفسه ، ص١٣١ – ص١٣٢ .
(٣٥) المصدر نفسه ، ص١٣٢ – ص١٣٣ .
(٣٦) بدوي ، عبد الرحمن : موسوعة الفلسفة ، جـ١ ، ص٤٧٣ – ص٤٧٤ .
(٣٧) ميد ، هنتر : الفلسفة انواعها ومشكلاتها ، ص١٠٩ .
(٣٨) توماس ، هنري :اعلام الفلاسفة (كيف نفهمهم) ، ص٣٠٣ .
(٣٩) بدوي ، عبد الرحمن : موسوعة الفلسفة ، جـ١ ، ص٤٧٤ .
(٤٠) غلاب ، محمد السيد : اصل الانسان ، ص٢٢ .
(٤١) بدوي ، عبد الرحمن : موسوعة الفلسفة ، جـ١ ، ص٤٧٤ .
(٤٢) ميد ، هنتر : الفلسفة انواعها ومشكلاتها ، ص١٠٩ .
(٤٣) الدباغ ، تقي وزميله : علم الانسان الطبيعي ، ص٥١ .
(٤٤) داروين ، تشارلس : اصل الانواع ، ترجمة اسماعيل مظهر ، منشورات مكتبة النهضة ، بيروت – بغداد ، ١٩٧٣ ، ص٥١ .
(٤٥) غلاب ، محمد السيد : اصل الانسان ، ص٣٣ – ص٣٤ .
(٤٦) الدباغ ، تقي وزميله : علم الانسان الطبيعي ، ص٥١ – ص٥٢ .
(٤٧) غلاب ، محمد السيد : اصل الانسان ، ص٣٤ .
(٤٨) المصدر نفسه : ص٣٤ – ص٣٥ .
(٤٩) الدباغ ، تقي وزميله : علم الانسان الطبيعي ، ص٥١ .
(٥٠) غلاب ، محمد السيد : اصل الانسان ، ص٣٥ – ص٣٦ .
(٥١) المصدر نفسه : ص٣٦ .
(٥٢) داروين ، تشارلس : اصل الانواع ، ص٥٨ .
(٥٣) ميد ، هنتر : الفلسفة انواعها ومشكلاتها ، ص١١١ .
(٥٤) بدوي ، عبد الرحمن : موسوعة الفلسفة ، جـ١ ، ص٤٧٤ .
(٥٥) المصدر نفسه : ص٤٧٤ .
(٥٦) ميد ، هنتر : الفلسفة انواعها ومشكلاتها ، ص١١١ – ص١١٢ .
(٥٧) المصدر نفسه : ص١١٣ .
(٥٨) المصدر نفسه : ص١١٣ .
(٥٩) غلاب ، محمد السيد : اصل الانسان ، ص٤٧ .
(٦٠) المصدر نفسه : ص٤٨ .
(٦١) ميد ، هنتر : الفلسفة انواعها ومشكلاتها ، ص١١٢ .
(٦٢) المصدر نفسه : ص١١٣ – ص١١٤ .
(٦٣) الدباغ ، تقي وزميله : علم الانسان الطبيعي ، ص٤٧ .
(٦٤) غلاب ، محمد السيد : اصل الانسان ، ص٥٠ .

(٦٥) المصدر نفسه : ص٥١ – ص٥٢ .
(٦٦) المصدر نفسه : ص٥٤ .
(٦٧) الدباغ ، تقي وزميله : علم الانسان الطبيعي ، ص٤٧ .
(٦٨) غلاب ، محمد السيد : اصل الانسان ، ص٥٦ .
(٦٩) المصدر نفسه : ص٥٦ .
(٧٠) المصدر نفسه : ص٥٧ – ص٥٨ .
(٧١) كرم ، يوسف : تاريخ الفلسفه الحديثة ، دار القلم ، بيروت – لبنان ، ١٩٤٩، ص٤٠٢ .
(٧٢) انجلز : دور العمل في تحول القرد الى انسان ، دار التقدم ، موسكو ، ١٩٦٨ ، ص٢٣ .
(٧٣) المصدر نفسه : ص٣ – ص٤ .
(٧٤) توماس ، هنري : اعلام الفلاسفة (كيف نفهمهم) ، ص ٣٢١ – ص٣٢٢ .
(٧٥) المصدر نفسه : ص٣١٩ .

المصادر

المصادر العربية:

١ – الجبوري ، نظلة احمد نائل : الفلسفة الاسلامية، مطبعة جامعة بغداد، ط١، بغداد ، ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م .
٢ - اخوان الصفا وخلان الوفا: الرسائل، المجلد الاول (القسم الرياضي)، دار صادر ، بيروت ، ١٩٥٧.
٣ - الدباغ ، تقي وزميله : علم الانسان الطبيعي ، مطبعة جامعة بغداد ، بغداد ، ١٩٨٣.
٤- أمين ، احمد وزميله : قصة الفلسفة اليونانية ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ط٢، القاهرة ،١٩٣٥
٥ - انجلز : دور العمل في تحول القرد الى انسان ، دار التقدم ، موسكو، ١٩٦٨ .
٦- بدوي ، عبد الرحمن : موسوعة الفلسفة ، جـ١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط١، بيروت ، ١٩٨٤.
٧- توماس ، هنري :اعلام الفلاسفة (كيف نفهمهم) ، ترجمة متري امين، مراجعة وتقديم زكي نجيب محمود ، دار النهضة العربية ، القاهرة - نيويورك ، ١٩٦٤ .
٨- داروين ، تشارلس : اصل الانواع ، ترجمة اسماعيل مظهر ، منشورات مكتبة النهضة ، بيروت – بغداد ، ١٩٧٣ .
٩ - دي بور ، ت . ج : تاريخ الفلسفة في الاسلام ، نقله الى العربية وعلق عليه د. محمد عبد الهادي ابو ريدة ، مكتبة النهضة المصرية ، ط٥، القاهرة ، ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م .
١٠ - رسل ، برتراند : حكمة الغرب ، ترجمة د. فؤاد زكريا ، جـ١، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والنشر والآداب، ١٤٠٣ هـ - ١٩٣٨م .
١١- سارتون ، جورج : تاريخ العلم ، ترجمة ابراهيم بيومي وآخرون ، دار المعارف بمصر، ط١، القاهرة – نيويورك ، ١٩٦١.
١٢- ستيس ، وولتر : تاريخ الفلسفة اليونانية ، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٤ .

١٣ - طرابيشي ، جورج : معجم الفلاسفة ، دار الطليعة ، طـ١ ، بيروت ، آيار (مايو) ١٩٨٧ .
١٤- عبرة ، عبد الرسول مهدي : قضية الخلق بين الماديين والمثاليين ، مطبعة حسام ، ط ١ ، بغداد ، ١٩٧٩ .
١٥ - غلاب ، محمد السيد : اصل الانسان ، الهيئة المصرية العامه للتأليف والنشر ، ١٩٧١ .
١٦ - كرم ، يوسف : تاريخ الفلسفه اليونانية ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، بيروت – لبنان ، ١٣٥٥ هـ - ١٩٣٦ م .
١٧ - كرم ، يوسف : تاريخ الفلسفه الحديثة ، دار القلم ، بيروت – لبنان، ١٩٤٩.
١٨ - مطر ، اميرة حلمي : الفلسفة اليونانية (تاريخها ومشكلاتها) ، دار المعارف ، مطبعة القاهرة الجديدة ، ١٩٨٨ .
١٩ - ميد ، هنتر : الفلسفة انواعها ومشكلاتها ، ترجمة د. فؤاد زكريا ، مطبعة نهضة مصر ، الفجالة – القاهرة ، ١٩٧٥.

المصادر الانجليزيه:

1 - Edwards , Paul : The Encyclopedia Of Philosophy , Volume (1) , London , 1967 .
2 - Turner , William , History Of Philosophy , Posten U.S.A , New Uork , Copyright , 1903 .